إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الأولى – العدد الأول – ربيع ١٣٩٠ش / آذار ٢٠١١م

الخصائص الفنية لشعر ابن نباتة الشاكى

حامد صدقى*
رحمت اله حيدرى منش**

الملخص

يعدّ ابن نباتة المصرى من أشهر شعراء العصر المملوكى، ويمكن القول بأنّه شكا فى شعره من قضايا مختلفة أكثر بالنسبة إلى معاصريه. فتناول فى شعره الشاكى موضوعات مثل الدهر، والموت، والفراق، والفقر، والشيب، والأمراض الشائعة فى بيئته. ولكن المهمّ الذى ترتكز عليه هذه المقالة هو التفات ابن نباتة إلى خصائص فنية قد ساعدته فى بيان شكواه وفى التعبير الأدقّ عن آلامه النفسية.

من أهمّ هذه الخصائص، يمكننا الإشارة إلى استخدام الشاعر للمفردات، والتراكيب، والأساليب، والمعجم الإيقاعى الملائم مع جو الشكوى الحزين.

الكلمات‌الدليلية: الشكوى، الخصائص الفنّية، المعجم الشعرى، التراكيب، الأسلوب، المعجم الإيقاعى، ابن نباتة.

*. أستاذ بجامعة تربيت معلم فى طهران.
**. خريج جامعة تربيت معلم فى طهران.
sedqi_1324@gmail.com

تاريخ الوصول: ١٣٩٠/٢/١٤هـ. ش
تاريخ القبول: ١٣٩٠/٢/٢١هـ. ش

المقدمة

اللغــة الشــعرية وعاء، وإطار محفوف بالدقة، يشــتمل على علاقــات خاصة، تتميز بالترابط القوىّ فى جلب المترادفات، وانتقاء المواد وتوظيفها، ومستوى الكلمات مصحوبة بدلالاتها الوضعية. والعمل الشعرى فى حقيقته تأليف بين اللّغة باعتبارها أصواتا وصورا وتكليفــا بما تعالج، وتناغما مع نبضة القلــب، بالإضافة إلى كونها فى المقام الأوّل فكرا وبالتالى كشفا لأمر لا بدّ منه. (بدوى، ١٩٤٨م: ٥)

والمادّة الشعرية التى تستند عليها هذه الدراسة، مادّة الشكوى التى شعر بها ابن نباتة، والحمولة التى كان يحشــو بها مضامينه، والخطاب الذى يبثه فى ديوانه، مناجيا بالصور الحزينة ومستجيبا لنداءات الذات المُتعَبة.

«إذ كان التعبير الشــعرى يجسّــم التجربة النفسية للشــاعر على هيئة معينة تنمّ عن أســلوبه وطريقه فى التعامل مع العربية ومتنها، فليــس عليه إلا أن يحقّق مفهوم الصدق الفنىّ، حتّى يمكن للمتذوّق لشــعره أن يشاطره انفعالاته وتخيلاته، وحتّى يتشاركان فى الغاية بالمتعة الفنية، ولايشترط فى المتذوّق، مادام قد أحس بالشاعر، وتمتّع روحيا، أن يكابد تفهّم الشعر فهما منطقيا أو دقيقا مبرّرا، إذ إنّ طبيعة الشعر الإيهام والإيحاء والرمز، لا الإفصاح والتعيين.إنّه فنّ غامض تُدثِّره غمامات وســحب، وإنّما حســب المتذوِّق أن يستشعر معانيه وموسيقاه، ويعتصر منه المتعة الروحية.» (دردیری، ١٩٨٣م: ١٧٣)

ولعلّ ما يميز شعرَ الشكوى عند ابن نباتة المصرى، هو تلك اللغة التى تتّسم بالجزالة، والفخامة والعبارة التى تمتلىء بالدّلالة على ما صنعت من أجله، فتكون فى مكانها الذى يشى بالقوة اللفظية. ورغم ما يحز من عنف الشكوى، ومرارة الألم لم يشغل شاعرنا عن اختيار لغته، وانتخاب معجمه، واصطفاء أســاليبه، بحيث لم يثنيه الجو القلق المتوتّر من تأليف لفظه، وبراعة معناه. وهذا يســوقنا إلى دراسة ومراجعة هذا الشعر، ومدى مطابقته لما ذكر، من خلال خصائصه الفنية مثل:

١. المعجم الشعرى

إنّ مــن أعمق ما يميز شــاعرا عن آخر ذلک الإحســاس اللفظــى، الذى يتّصف به الشــعراء عامة، ويعطى شــعرهم صبغة تميّزه عن الكلام العادى.ونظرية المعجم الشعرى للشــاعر: هى «نوع اللغة المناسبة للشعر والرّخص المسموح بها، ومعجم كاتب أو أديب مجموعة من الألفاظ التى تشــيع فى قلمه ويســتعملها فى التعبير عن أفكاره، والمعروف أنّ ثروة كلّ كاتب تختلف عن ثروة زميله كمية ونوعية، حسب ثقافة كلّ منهما والمناهل التى استقيا منها وسائل الإبانة.» (التونجى، ١٩٩٢م: ٥٥)

«واللّغة الشــعرية تتّســم بالتواتر المســتمرّ بين القديم والجديد، والثابت والمتغير من طرائق الألفاظ وقوالب الصياغة. ممّا يضع أمام الشاعر خيارات شتّى من أعراف اللسان، ودلالــة الكلمــة. وهو أمام هذا الحصــاد المعرفى والمذخور اللفظــى تعامل وفق ذائقته وإحساســه، ويعكس وعيه الشــعرى، وخاصّة أمام العرض الّذى هو بصدده.» (طه بدر، لاتا: ١٣٠)

فقد كان ابن نباتة، على حظّ كبير من الثقافة اللغوية، وعالما بغريبها ومأنوســها، كما كان متضلعا من الألفاظ المســتحدثة والتراكيب المولدة التى عرفها أبناء عصره.وتتّســم ألفاظه بالرقّة والجزالة وحسن السبک، وها هو يقول مصرحا:

كانَــتْ لِلفظــى رِقَّــةٌ ضَنَّ الزَّمانُ بما اسْتَحَقّت
فَصَرَفْتُهــا عَــنْ قُدْرَتــى وقَطَعْتُها مِــنْ حَيثُ رَقَّت

(ابن نباتة، لاتا: ٣١٦)

«هو إذا معروف ومشــهور بين أبناء عصره بالرقّــة والدقّة، والعذوبة والحلاوة، وهذه النعوت الأربعة هى ما اصطلح على تسميتها بالانسجام النباتى.» (باشا، لاتا: ٤٥٠)

ومعجم ابن نباتة فى شــعره الشاكى، يشى ويفيض بألفاظ التعب والأسف والشكوى، وتدور فيه ألفاظ كثيرة، منها: (البين – الشــكوى – الأســى – السهاد – البعاد – البكاء – الزمان – الصبابة – الدمع – النأى – الهجر – الشــوق – الشــيب – الفقر – الهموم – الأنكاد – الدهر – الأيام– اللّيالى – الشــجن – اللهف – الجفا – الضنى – الفراق –

الحزن – الآه – الرّدى– الموت – السقام – الجرح – الطّاعون – الزّكام – الجزع.)

هــذه الألفاظ ونظائرهــا تعطى صورة جلية واضحة عن تدفّــق الألم والحزن وعمق الشــكوى، بغض النظر عن ســياقها فى الكلام، فشــعر ابن نباتة طافح بهذه الألفاظ ممّا ترسم للقارىء صورة نفسه الأليمة المكتئبة فى سياق قصائده ومقطوعاته الشاكية، ومنها كلمة اللهف، والتى تعطى معنى التحســر والحزن إثر فقد عزيز أو حبيب للإنسان، وذلک مثل قول الشاعر:

فلهفــى على دنيا العفــاة تنكّرت ولهفــى على ربع الســماحة اقفرا
ولهفى على بيت الســعادة والتقى ولهفى على حى القــراءة والقِرى

(ابن نباتة، لاتا: ٢٢٤)

نــراه يكرّر لفظــة اللهف، أربع مرات وهو يرثى القاضى تــاج الدين ابن الزيات، كما يكرّرها عشــر مرّات فى مطالع أبيات قصيدة يرثى فيها الملک المؤيد. يكثر الشاعر من اســتعمال هذه الكلمة ممّا يبلغ استعماله لها إحدى عشــرة مرّة فى شعره الشاكى، ولعلّ التكرار فى ألفاظ أبرز ظاهرة ميزتها، وليس ذلک يراجع ضعف الأســلوب وإنما هو فى الواقع يرجع إلى نفسية الشاعر المفجوعة.

ويكرّر كلمة صبّ، إلى جانب كلمات مثل الأحباب، البعد، القرب، الدمع، ممّا يصوّر حاله الحزينة إثر فراقه عن الوطن، فيقول:

صَــبٌّ إلــى أحبابه ما سَــلا بِــاللهِ فــى بُعْــدٍ ولاقُــرْبِ
صَــبٌّ عليــهِ الدَّمــعُ هَتّانــهُ فيــا لَــهُ صَــبّ علــى صَبِّ

(المصدرنفسه: ٥٨)

ومن ميزات معجم ابن نباتة الشعرى، اختياره لمفردات ترسم تلک المعاناة التى أرقّت الشاعر، وذلک نراه حيث يصيح شاكيا فقره:

لَقَــدْ أصبَحْتُ ذا عُمْــرٍ عَجْيبِ أقَضّــى فيــهِ بالأَنْكــادِ وَقْتــي
مِــنَ الأولادِ خَمــسٌ، حَولَ أمٍّ فَوا حَرْبــاهُ مِنْ خَمْسٍ وسِــتِّ

(المصدرنفسه: ٨٠)

«فاستخدم الشاعر لصيغة أقضّى المشدّدة، تعطى لنا طبيعة قضاء الشاعر للأوقات وهى طبيعة اضطرارية، فقد كان يقضيها على مضض. وكذلک صيغة الجمع فى بالأنكاد، التى تظلل أوقاته كلّها باللون الأسود، ثم استخدام فوا حرباه، ممّا يزيد اللون ظلمة وقتامة أكثر.» (أنس، ١٤٣٠ق: ٢٢٣)

ومن روائع اختياره، استخدام لفظ ميت، بدلا من ميت، التى تعنى الموت الفعلى بسبب الفقر. (نفس المصدر: ٢٢٩)

يا صاحبَ السرِّ وفى ذكرِه لِلْمِسْکِ سِرٌّ غَيرُ مَكْتومِ
عَطْفاً على مِيتٍ مِنَ الفَقْرِ قَد أصبح فى حالة مرحوم

(ابن نباتة، لاتا: ٤٥٧)

ويتجاوز الشاعر فرديته فيوسع الدائرة؛ رغبة فى الاستشفاء وتخفيفا من الآلام، فنراه يتّكئ على مفردات الطبيعة ويقيم حوارا معها، ممثلة فى الناعورة، والقضيب، والحمامة. يقول:

وناعورةٍ كانَتْ قَضيباً فَأصبحتْ إلى القَضْبِ شَوقَا كالحَمامَةِ تَسْجَعُ
شَكوتُ لَها ضَرَّ الغَرامِ وحالُها كَحالى بُكاءً أو حنيناً يرجِعُ

(ابن نباتة، لاتا: ٣١٥)

ومثل ذلک قوله:

شَكوتُ إلى سَفْحِ النَّقا طولَ نَأيكُمْ وسَفْحُ النَّقا بَالنَّأىِ مِثْلى مُروَّعُ
ولا بُدَّ مِنْ شَكوى إلى ذِى مُروءةٍ يواسيکَ أو يسَلِّيکَ أو يتَوَجَّعُ

(المصدر نفسه: ٢٩٥)

لايكتفى الشاعر بهذا النوع فى اختيار المفردات، بل يختار مفردته حتّى من خلال نوعية الحروف وجوّها فى إعطاء صورة نفسه الحزينة، فنراه يعتمد على اختيار الأصوات الرخوة أو الاحتكاكية مثل السين، والصاد، وذلک مثل قوله:

سلام على عهد الصبابة والصبا سلام بعيد الدار لا غرو إن صبا

(المصدر نفسه: ٤٩)

وأيضا يعتمد على اختيـــار الأصوات الانفجارية، مثل الباء، إلى جانب تكراره للفظة الصبّ، ممّا يصوّر حزنه وغضبه النفسى الناتجين عن البعاد، فيقول:

صَـــبٌّ إلـــى أحبابه ما سَـــلا بِـــاللهِ فـــى بُعْـــدٍ ولا قُـــرْبِ
صَـــبٌّ عليـــهِ الدَّمـــعُ هَتّانـــهُ فيـــا لَـــهُ صَـــبّ علـــى صَبِّ

(المصدر نفسه: ٥٨)

فكرّر الشـــاعر حرف الباء الانفجارية تســـع مرّات، كما كرّر لفظة الصبّ أربع مرات، وليس هذا التكرار إلا لترسيم جو الحزن والغضب.

وهكذا وجدنا ابن نباتة يوائم بين المفردات خدمة لشـــعره الشاكى، فاستطاع أن يعبّر خلال هذا الاستخدام، ما يعتمل فى نوازع نفسه وهواجس ألمه تعبيرا حيا صادقا، ويرسم واقع حاله الحزين.

٢. التراكيب

قد عُنى ابن نباتة بخصائص شتّى لتراكيبه فى شعره الشاكى، فإنّه يعتقد بدور التراكيب الهامّة فى السياق الشعرى ولتكميل رسالة الشاعر، يحاول أنْ يختار من التراكيب ما تردّ إلى لغة شعره تلك الحياة الّتى كانت عليها. ومن أهمّ خصائص شعره الشاكى:

٢. ١. الاستفهام:

ومن هذا السياق استطاع الشاعر أن يصوّر حزنه ويعبّر عن همومه، إذ نراه يكثر من الاستفهام، فى شعره الشاكى، وخاصة فى شكوى الفراق، ومن ذلك قوله:

وهَـــلْ إلى أرضِ مصرَ زَورةٌ لِشَـــجٍ بِســـائِلٍ مِنْ دُمُوعِ الشّـــوقِ مِلْحاحِ
وهَـــلْ أباكِرُ بَحْـــرَ النِّيلِ مُنْشَـــرِحاً فأشْـــرَبَ الحُلْوَ مِنْ أكْـــوابِ مَلّاحِ

(المصدر نفسه: ١٠٦)

وأيضا قوله:

أيـــنَ سِـــهامُ العَيشِ مَقســـومةً وأيـــنَ فـــى الأَلْفاظِ تَســـهيمى
وأيـــنَ أوطـــانُ الغِنـــى والهَنـــا وأيـــنَ إقدامـــى وتَقْديمـــى

وأيــن لا أين بلى أشــرقت نجوم ســعدى قبل تنجيمى

(المصدر نفسه: ٤٥٥)

ومن استفهاماته بكيف، والتى تعنى دوام الاستفهام، قوله فى شكوى موت زوجته:

وكيف أعانى سَــجْعَةً أو قَرينةً وقد فَقَدْتُ مِنّــى أجَلَّ القَرائِنِ

(المصدر نفسه: ٥١٦)

٢. ٢. النفى والاستدراك، منها قوله فى شكوى صدود الحبيب:

خَضَبْتُ مَشــيبى بِالدُّموعِ فَما بِه ولكِــنْ بِقَلْبــى لِلْهُمــومِ نُصُــولُ

(المصدر نفسه: ٤١٨)

٣. ٢. التمنّى:

يقول الشاعر متمنيا، فى شكوى الصديق:

كَمْ أقاســى مِنَ الغَــرامِ وأخفى عَــن وُشــاتى صَبابَــةً وغَليــلا
آه يــا وَيلَتــى ويــا لَيــتَ أنّى كنــتُ لَــمْ أتّخِــذْ فُلانَــا خَليلا

(المصدر نفسه: ٥٦٠)

وأيضا يقول فى شكوى الصدود:

ليتَ شِــعرى أهكذا كلُّ صَبٍّ أم كــذا حالُ حَظّى المَقْســومِ

(المصدر نفسه: ٤٤٧)

فالشــاعر لايجد لطلب المحال شــيئا إلّا التمنّى بليت، وليت كمــا نعلم تتعلّق بطلب المستحيل غالبا.

٤. ٢. استخدام الجمل القصيرة، مثل قوله:

أشــكو لِفَضلِــک حرفَةً مــا لــى بِهــا مُسْــتَمْتَعُ
أحوالــى معلــوم تســو ءُ وصاحِــبٌ لاينْفَــعُ

(المصدر نفسه: ٣١٩)

أو قوله:

رِجْلــى وحالى لِغَيــرِ نافِعٍ أصبــحَ هــذا لِــذا يخالِفُ

الرِّجْلُ طــولَ النَّهارِ تَمْشــى والحالُ طــولَ النّهــارِ واقِفُ

(المصدر نفسه: ۳۳۵)

فالشاعر يستخدم هذه الجمل القصيرة ويصوغها من مجزوء البحور الشعرية، لكى يعبّر عن نفسه المتألّمة ويساير شعره لضيق صدره المُعنّى وكأنّ الشكوى هى التى تتكلّم.

۵. ۲. المحاورة مع النفس:

تتدفّق التراكيب عندما تمتزج الشــكوى باليأس أو بالغضــب، فيتحوّل الخطاب إلى المحاورة مع النفس، فيقول:

أقــولُ لِقلبى العانــى تَصَبَّرْ وإنْ بَعُدَ المُساعِدُ والحَبيبُ
عسى الهَمُّ الّذى أمْسَيتُ فيهِ يكــونُ وَراءَهُ فَــرَجٌ قَريبُ

(المصدر نفسه: ۶۱)

وأيضا قوله فى شكوى الزمان:

يا ابــن نباتة جــارَ الزمانُ وزُلت وزالَتْ قُوى هِمَّتِک

(المصدر نفسه: ۸۰)

۶. ۲. البداية بالمصدر المحذوف فعلُه، مثل قوله:

يــا صاحبَ السِــرِّ وفــى ذِكره لِلْمســکِ سِــرٌّ غيــرُ مَكتــومِ
عَطْفَاً علــى مِيتٍ مِــنَ الفَقْرِ قَدْ أصبــحَ فــى حالــةِ مَرْحــومِ

(المصدر نفسه: ۴۵۷)

فالبداية بالمصدر المحذوف فعله: عطفا، قد عكســت حالة الشــاعر المرزّية الحزينة. (أنس، لاتا: ۲۲۹)

۷. ۲. الشكوى الذاتية، المشتملة على صيغة المتكلّم، فهى ترسم حالة نفسه الحزينة الشّــاكية، وبما أنّ عرض كلّ الشواهد الشعرية، لهذه الســمة، يطلب مجالا أوسع نكتفى ببعض منها:

أشــكو إلــى اللهِ لا إلى أحدٍ .....

(ابن نباتة، لاتا: ۱۶۸)

أشــكو إلــى اللهِ ما أقاســى .....

(المصدر نفسه: ٥٣٣)

إلى الله أشــكو يــوم فقدک .....

(المصدر نفسه: ٤٠٨)

ومن مظاهر شكوى الشاعر الذاتية، استعماله لياء المتكلّم، منها قوله:

لا عــارَ فى أدبى إنْ لَمْ يَنَلْ رُتَبَا وإنَّما العارُ فى دهرى وفى بلدى

هذا كلامــى وذا حظّى فيا عَجَبا منّــى لِثَــروةِ لفــظٍ وافتقــارِ يدِ

(المصدر نفسه: ١٢٥)

فنراه يكثر من استعمال الياء، حيث بلغ عددها ستّ مرات فى هذين البيتين الشاكيين، وتدلّ هذه الظاهرة على احتجاج نفس الشاعر على ما تعانى منه من فقر وسوء حال.

٣. الأسلوب

يتميز أسلوب ابن نباتة فى شعره الشاكى بعدّة سمات، من أهمّها:

١. ٣. التأثّــر بالقرآن الكريم: لا غرابة إنْ رأينا الأســلوب القرآنى والآيات القرآنية تتناثر فى شعره هنا وهناک، لأنّه من رجال الدّين المشهورين، ومن حفظة القرآن الكريم، يســتخدم أسلوبه وألفاظه كلما سنحت له الفرصة. (باشــا، لاتا: ٤٥٣) يستخدم الشاعر من القرآن الكريم فى بعض الأحيان أسماء سوره، كما فى قوله وهو يشكو الحرمان:

ســيدى أصبحتُ مَقْروحَ الحَشا وبِشَــىء اللَّحْم فى ذا اليوم عانِ

زُخْــرُفَ الأَلْفــاظِ قد أرســلتُه فعســى تَمْــلأَ بيتــى بالدُّخانِ

(ابن نباتة، لاتا: ٥٤٤)

نراه يســتخدم **الزُّخْرُف**، **والدُّخان**، وهما من أســماء الســور القرآنيــة وجعل هذين الاســمين مناط الإبحار ومركزى الدلالة للتحليق فى تجربته التى يحاول من خلالها أنْ يقيم توازنا مصطنعا بين الشعر واللحم.

ولم يقتصر على اســتخدام أســماء الســور القرآنية، بل تعداها إلى الآيات الشريفة،

فاستمدّ منها كلمات وفقرات وجملات. فأدخلها بعضها صريحا أو بتغيير طفيف، كيما تتلاءم مع الوزن والشطر والشعر ودليلا على ما قلنا، ما قال الشاعر فى شكوى الفراق:

يا ساكنِى مصرَ تَبَّتْ لِلْفراقِ يدٌ قد صَيرتْ بَعْدَكُمْ حُزْنى أبا لَهَبِ
ومُهجَتى فى ضُلوعى مِنْ جَوَى وضَنَى حَمّالَةَ الهَمِّ أو حَمّالَةَ الحَطَبِ

(المصدر نفسه: ٥٩)

ويقول فى الشكوى من العذّال:

ومِنَ البَليةِ عُذَّلٌ قد ضَمَّتْ ثِقْلَ المَلامِ مَقالُها وفِعالُها
يا ليتَ أرضَ العاذِلينَ تَزَلْزَلَتْ أو ليتَها لا أَخْرَجَتْ أثْقالَها

(المصدر نفسه: ٣٧٨)

٢. ٣. التأثّر بالحديث الشّريف والسيرة النّبوية: استخدم الشاعر السيرة النبوية، فى بعض معانيه، ففى المدائح النبوية ذكرَ وتأثّرَ بالإرهاصات التى سبقت البعثةَ، ولم يقتصر الأمر عليها وإنّما تجاوزها إلى الأغراض الأخرى، كما يقول متأثّرا بها فى شكوى الصديق:

ألا ليتَ شِعْرى هل أفوزُ بِحافِظٍ آىَ الوُدِّ مِنْ هذا البَريدِ المُرَدَّدِ
فيَرْفَعَ أخبارَ السَّلامِ لِمالِكٍ ويُسْمِعُنى فى الرّدِّ أحْمَدا

(المصدر نفسه: ١٧١)

فذكر مالك بن أنس (رض) وأحمد بن حنبل (رض)، كما ذكرهما مرّة أخرى بعد الإشارة إلى الإمام الشافعى (ره):

يا مُسدى النُّعمى الّتى قد أصبحتْ مُسْنَداً لِمَنْ يشكو الزَّمانَ ومَسْنَدا
أحْسِنْ بِجاهِک شافعى يا مالِکَا أروى بجودِ يدَيهِ مُسْنَدَ أحْمَدا

(المصدر نفسه: ١٤٥)

٣. ٣. استخدام المصطلحات النحوية والعروضية: «كان للشاعر منها أوفر نصيب، ولو حاولنا أن نجمع فى محل واحد ما ورد منها، لكان لنا من مجموعها هيكل كامل المباحث فى النحو والصرف والعروض.» (باشا، لاتا: ٤٢٩) نكتفى باستخدامه لهذه المصطلحات فى

شعر الشكوى، منها قوله:

ما أعْجَبَ الدَّهرَ فى حالَى تَقَلُّبِه وَصْلٌ وصَــدٌّ وتَعريــفٌ وتَنْكيرُ

(المصدر نفسه: ٢٢١)

فاســتخدم الوصل، والتعريف، والتنكير، وهى مــن المصطلحات الصرفية. وما أجمل قوله حينما يتحدّث عن عروض الدهر بدلا من عروض الشعر:

لَهْفــى عَلَيــكَ لِبيــتٍ قــد تَحَيفَــه عروضُ دَهْرٍ فَأَضْحى البَيتُ مَنْهوكا

(المصدر نفسه: ٣٧٠)

ومثل قوله فى عروض الزمان:

تَصَــدَّقْ بِرِفْدٍ على الســائليـ ـنَ ما كانَ يمكِنُ رِفْدٌ جَميلُ

ولا تَأمَنَــنَّ عــروضَ الزمانِ فَــإنَّ الزَّمــانَ فَعــولٌ فَعــولُ

(المصدر نفسه: ٤٢٠)

٤. ٣. اســتخدام المصطلحات الصوفيّة: يشــترک الشــاعر فى الحديث عن الصوفيّة والمتصوفة ويتأثر أسلوبه أيضا بمعتقداتهم ومصطلحاتهم الخاصّة، يقول مستخدما بعض مصطلحاتهم فى الزهد والعرفان والخرقة، ويعبّر خلال ذلک عن فقره:

يا شــيخَ أهلِ العِلمِ والزّهدِ فى ســاداتِ أهْــلِ الرِّفْــقِ والرَّفْقَةْ

لِى خِرْقَةً ضاعَــتْ وأنتَ الّذى تَلْبِــسُ مِــنْ عِرْفانِــه الخِرْقَــةْ

(المصدر نفسه: ٣٥٥)

٥. ٣. استخدام التورية أو الرّمز النباتى: قد يكون من الغريب لأوّل وهلة أنْ نُقَرِّرَ بأنَّ ابن نُباتة صاحب مذهب رمزى خاص فى الشــعر العربى، والصحيح أنَّ المذهب الرمزى الحديث الذى ظهر فى نهاية القرن التاســع عشــر الميلادى كان امتدادا للمذهب الرمزى الذى بلغ ذروته على يد ابن نباتة أمير شــعراء المشرق، والواقع أنَّ ابن نباتة أخذ مذهبه الرمــزى عن مبادئ مدرســة القاضى الفاضل (ت ٥٩٦ ق) وهــو رائد المذهب الرمزى بمصر، كما أخذه عن أصول مدرسة عبد العزيز الأنصارى، وهو إمام هذه المدرسة بالشام وقد وحّد شــاعرنا بين هاتين المدرســتين، ممّا أصبح المذهب الرمــزى النباتى صورة

واضحة للوحدة الأدبية بين مصر والشام. (باشا، لاتا: ۴۴۲ و۴۴۳)

ولم يكن غرض ابن نباتة من استخدام التورية والرمز، الإبهام واللعب بالألفاظ، إذ يتّسم شعره بالرقّة والانسجام، وإنّما كان غرضه الإيحاء الذى يستلهمه القارئ دون تكلّف.

ومن التورية فى شعره الشاكى، قوله فى شكوى الفراق:

نَقَل الضّنى عَنْ مُهْجَتى خَبَرَ الصَّبابَة والجَوَى
وحَياتِكُم ما ضَلَّ فىَّ نَقْلُ الحَديثِ ولا غَوَى
آهاً عَلى العَيشِ الَّذى بِيدِ الفِراقِ قَدْ انْطَوَى
ما كانَ أسْرَعَ ما انْقَضَى وحَصَلْتُ مِنْهُ عَلى الهَوَى
عَجَباً لِمِثْلى ما عَلَى نَأيِ الحَبيبِ لَهُ قُوَى
يقولُ لِنَبْلِ الرّاشِقيـ ـنَ وليسَ يقْوى لِلنَّوَى

(ابن نباتة، لاتا: ۵۴۶)

لعلّنا استطعنا تبيينَ صور ثلاث فى الأبيات السابقة، «فالأولى شَخَّصَتْ الضّنى الذى أسقم الشاعر، فنقل عن مهجته خبر صبابته وجواه، والثانية زفرة حرّى يصعدها الشاعر على ذكرى الماضى السعيد والعيش الهنىء اللذين عبر بهما الشاعر ولقد عبّر عن سرعة انقضاء سويعات الهوى القصيرة التى طوتها الأيام من عقد الزمن. والثالثة تعيدنا لحرب جديدة، ولكنّها ليست بين العاشقين، وانّما استعرت بين الشاعر والنوى، فهو يستطيع الصمود والتجلّد فى الحرب دون أنْ يخشى وقعَ نِبالِ الراشقين، ولكنّه لن يقوى على الوقوف أمام امتداد البين، وإنّما يتخاذل أمام صروف النوى المتقلّبة.» (باشا، لاتا: ۴۵۴)

۶. ۳. التفكه والمزاح: كان ابن نباتة فكهاً مطبوعاً على المزاح، ومعروفاً بالعبث والدعابة بين أصدقائه، فهو يتهكّم عليهم فى كل مناسبة تعرض، أو موقف مضحك يطرأ، و«الفكاهة من أهم ما يميز المصريين، فهم مشغوفون بالنكتة على كلّ شخص وكلّ شىء. فلا غرو أن نرَى الشاعر فكهاً فهو مصرىُّ المنبت نيلىُّ المنشأ والطبيعة المصرية مطبوعة أكثر من غيرها على روح الفكاهة.» (باشا، لاتا: ۳۴۰)

على كلّ حال لاينسى الشاعر هذه الظاهرة حتّى فى شعره الشاكى، فقد بدأ بنفسه فوصف حاله وهو يشتكى:

سادَتى كَمْ أشْتَكى لِخَلِىٍّ يتَغَمَّمْ
صِرْتُ مِنْ وَهْمى تَيسَاً لِلْمَراعى يتَشَمَّمْ
ما لَه فى الشّامِ مَرْعَى فَدَعوهُ يتَقَمَّمْ

(ابن نباتة، لاتا: ٤٥٦)

سخر الشاعر من نفسه، وحَسِبَ أنّه تيس يتشمّم المراعى، لكنّه لايحظى بها، فلا حيلة له إلا أنْ يتقمّم بعد أن افتقد عشب مرعاه. ويصوّر حاله فى أيام شقائه، ويفلح فى هذا التصوير الساخر، وهذا الوصف الدافئ، كلسانه، يقول:

أشكو إلى اللهِ ما أقاسى مِنْ شِدَّةِ الفَقْرِ والهَوان
أصْبَحتُ مِنْ ذلَّةٍ وعُرى ما فىَّ دافٍ سِوى لِسانى

(المصدر نفسه: ٥٣٣)

ويصف سقامه وسقام امرأته، فكأنّهما فى التمثيل شطرنج:

أشكو السِّقامَ وتَشْكو مِثْلَه امْرَأتى فَنَحْنُ فى الفَرْشِ والأَعْضاءُ تَرْتَجُّ
نَفْسانِ والعَظْمُ فى نَطعٍ يجْمَعُنا كأنَّما نحن فى التّمثيلِ شَطْرَنْجُ

(المصدر نفسه: ٩٥)

وُفِّق الشاعر حقاً فى رسم هذه الصور الضاحكة، فلم تفارقه هذه الطبيعة المرحة وهذه الروح الضاحكة حتّى فى أشدّ أيام بؤسه وشقائه، ولعلّ فى ذلک ما يخفّف عنه شيئاً من همومه وأحزانه التى جعلته دوما يشكوها.

٤. المعجم الإيقاعى

إنّ البحث فى الإيقاع، يتّصل اتّصالا وطيدا بدراسة البحور العروضية، لأنّها أهمّ خصائص المعجم الإيقاعى عند كلّ شاعر، فعلى هذا المنطلق ندرس بداية أهمّ مظاهر المعجم الإيقاعى المتصلة بالبحور العروضية فى شعر ابن نباتة الشاكى، مرتكزا على أهم

سماتها عنده:

١. ۴. البحور العروضية

يســتخدم ابن نباتة فى شعره الشــاكى أكثر البحور ملائمة مع جو شعره هذا، ويعتمد على أوثقها صلة بمعانيه الشاكية، فهذه البحور هى:

التسلسل	البحر	عدد القصيدة / المقطوعة	عدد الأبيات	النسبة المئوية
١	الطويل	٣٢	٨٠	٪٢٠
٢	البسيط	٢۶	٩٠	٪٢٢,٧
٣	الكامل	٢۴	٨۶	٪٢١,٧
۴	الرجز	١٠	٣۵	٪٨,٨
۵	الخفيف	١٠	٣٠	٪٧,۶
۶	الوافر	٧	١۶	٪۴
٧	المتقارب	۴	١٠	٪٢,۵
٨	الرمل	٣	٩	٪٢,٢
٩	السريع	٣	۵	٪١,٢
١٠	المجتث	١	٣۵	٪٨,٨
١١	الهزج	١	٢	٪٠,۵
	مجموع الأبيات		٣٩٨	٪١٠٠
	مجموع القصائد و المقطوعات	١٢١		

مــن خلال هــذا الجدول، يتّضح لنا أنّ الشــاعر قــد اهتمّ باختيار البحور الشــعرية المناسبة لجو شعره الشاكى؛ إذ نظم معظم أشعاره فى هذا المضمون من البحرين الطويل والبســيط، و«هما من أكثر البحور طولا، فالبحر الطويل يتّســع لكثير من المعانى كالفخر والحماسة والرثاء والشكوى والألم و...، والبسيط يقرب من الطويل وإن كان لايتّسع مثله لاســتيعاب المعانى الكثيرة، لكنّه يفوقه رقّة وجزالة، على كل حال، هذان البحران يعَدّان بحــرى الجزالة والفخامة، ويحتاجان إلى ثقافة لغوية ضخمة وثروة من الأخيلة والمعانى

الواسعة، لاتتّفق لكلّ شاعر.» (جندى، لاتا: ١٠٢)

ومن أهمّ سمات المعجم الإيقاعى المرتبطة بالبحور العروضية عند الشاعر:

أ. **استخدام البحور ذات التفعيلة الواحدة**، كالبحر الكامل والرجز والمتقارب، وهذا يعنى أنّ الشاعر قد حدّد فى ذهنه بوضوح النغمة العروضية التى تتلاءم وطبيعة شعره.

يقول ابن نباتة، وهو يشكو من فراق وطنه [من الكامل]:

آهــاً لِمِصْرَ وأينَ مصرُ وكيفَ لى　　بديــار مصــرَ مَراتِعــاً ومَلاعِبا

(ابن نباتة، لاتا: ٢٦)

كما يقول فى شكوى الفقر [من الرّجز]:

يــا سَــيدى دَعْــوَة ذى حالة　　أحالَهــا الدَّهــرُ وعُدْوانُــه

ذوالفقــرِ فــى أوطانِــه نأيــه　　وذوالغِنــى فى النــأيِ أوطانُه

(المصدر نفسه: ٤٩٩)

ويقول فى شكوى الزمان [من المتقارب]:

يــا ابــن نُباتَــة جــارَ الزَّمانُ　　وزُلْــتَ وزالَــتْ قُــوى هِمَّتِكْ

وقَــدْ كنتَ ذا حكمــةٍ وانقضت　　فــلا أوحش اللهُ مِــنْ خدمتِكْ

(المصدر نفسه: ٨٠)

ب. استخدام الأوزان المجزوءة، ممّا يدلّ على القلق والاضطراب فى نفسية الشاعر. على سبيل المثال يقول فى شكوى الفقر [من مجزوء الرجز]:

قُــلْ لِلفَهيــم النّاصــرى　　ى صائِحــاً مُسْــتَنْصِرا

يــا صاحبــى أَصْبَحْــتُ حتـ　　ـتــى فــى الخَطــاء مُعَثَّــراْ

(المصدر نفسه: ٢٤١)

وأيضا يقول فى شكوى الفراق [من مجزوء الكامل]:

نَقَــل الضّنــا عَــنْ مُهْجَتــى　　خَبَــرَ الصَّبابَــةِ والْجَــوَى

آهــاً علــى العَيــشِ الّــذى　　بِيــدِ الفِــراقِ قَــدْ انْطَــوَى

(المصدر نفسه: ٥٤٦)

فوجدنا الشـاعر يرتكز علـى الإيقاعات السـريعة المتلاحقة التـى يحقّقها مجزوء البحور، ممّا يعكس نبضات الشـاعر المضطربة، ورغبته اللاهثة وراء تحقيق الغرض من الشكوى.

٢. ۴. القوافـى: للقافية دورها البارز فى تأكيد المعنـى باعتبارها النهاية البارزة فى البيـت، بحيث يصبح الصوت النغمى متوافقاً مع الألفـاظ المبثوثة فى بقية البيت لتنهض بغاية مفردة تتوج بإدخال القارئ إلى صميم التجربة الشعرية. (عصفور، ١٩٨٢م: ۴٠٧)

ومن حيث اختيار القوافى، فيعتمد ابن نباتة كثيرا على استخدام الحروف التى تساعده على ترسـيم جو القلق والاضطراب والحزن، ويتجنّب اسـتخدام الحروف الكريهة التى تصدم الآذان وتخدش الروح، ومن اختياراته الرائعة للقافية فى شعره الشاكى، استخدامه للأصوات الانفجارية، كالدال، والقاف، والهاء، وذلک مثل قوله فى شكوى الفراق:

فلا ابْتَسـمَ البَرْق الذى كان بالحمى　　غـداةَ تفرُّقنـا ولا قَهْقَـهَ الرَّعـدُ

(ابن نباتة، لاتا: ١٣٥)

ويقول مستخدما قافية القاف، فى شكوى الفراق:

أين عيشـى والشَـمَلُ فيه جميع　　ومرامـى ومـا اسْـتَقَلَّ الفَريـقُ

(المصدر نفسه: ٣۴۴)

ويقول مستخدما قافية الهمزة، فى شكوى الليل:

ما بـالُ ليلـى لايسـيرُ كأنّما　　وَقفَـتْ كَواكِبُـه مِـنَ الإعياءِ

وكأنّمـا كَيـوانُ فـى آفاقِـه　　أعمى يسائِلُ عنْ عَصا الجَوزاءِ

(المصدر نفسه: ١٨)

ويجدر بالذكر أنّ الشـاعر لاينسى استخدام الأصوات الاحتكاكية أو الرخوة، كحرف السين الذى يلائم جو الحزن، اذ يقول فى شكوى صدود حبيبه:

يا ناسـياً عَهْدى ولسـتُ بناسى　　مـا النّاسُ إنْ عَذَلوا عليک بِناسِ

أضحى غرامى فيک نعتًا واضحا　　فَمَدامِعـى تَجْـرى بِغَيـرِ قِياسِ

(المصدر نفسه: ٢۶۴)

وفّق الشـــاعر فى إبراز جو الحزن الموجود فى هذه القصيدة وذلک عبر اســـتخدامه لحرف الســـين الذى جاء تعبيراً عن ألم نفسه الحزينة، كما كرّر هذا الحرف خمس مرّات فى البيت الأوّل.

وأحيانا يختتم قافية البيت بما يســـاعده على تصوير الشـــجن والمأساة، فنراه يمزج قافية الراء، وهو من الأصوات المتوسطة بين الرخوة والشدّة، بحرف الألف المد والألف، كما هو معروف له نوع من القداسة فى العربية، والمدّ يعطى جانبا من الفن التشكيلى عن طريق الرســـم بالحروف المتوازنة، والمعتمدة على الاستقامة والتقويس.» (بدوى، ١٩٤٨م: ٥٧) وذلک مثل قول الشاعر:

قُـــلْ لِلفَهِيـــمِ النّاصـــرى ى صائِحـــاً مُسْـــتَنْصِرا

(ابن نباتة، لاتا: ٢٤١)

أليست هذه الاختيارات إلا تشكيلا لغويا ومعادلا فنيا وجماليا لحالة الشاعر المعنوية والفكرية؟ فلا عجب لشـــاعر مثل ابن نباتة الملقّب بأمير شـــعراء المشـــرق أن يفكّر فى دقائق شـــعره، ويخوض فى أعماق كلامه حتّى يخرج منه فائزا يعجب به القرّاء وسراجا يستضىء بنوره الطلّاب.

النتيجة

كما لاحظنا فى هذه المقالة، قد تناول الشاعر، ابن نباتة المصرى، شتّى الموضوعات فى شـــعره الشـــاكى. لكنّه على الرغم من هذا فلا يمنعه جو الشكوى الحزين، من اختيار لغة شعره وجودة فنّه. فرأيناه يهتمّ بخصائص فنّية مختلفة تساعده فى التعبير عمّا تعتلج فيه من أحزان وهموم مبرحة لايمكنه تشريحها إلّا بلغة البوح والشكوى.

ومن هذه الخصائص:

١. **المعجم الشعرى**: وهو مجموعة من الألفاظ التى تشيع فى قلم الكاتب أو الشاعر، يستعملها فى التعبير عن أفكاره، والمعروف أنّ ثروة كلّ كاتب أو أديب تختلف عن ثروة زميله كمية ونوعية.

٢. التراكيب: مثل استخدام الاستفهام، النفى والاستدراك، المحاورة مع النفس، التمنّى، البداية بالمصدر المحذوف فعله، استخدام الجمل الصغيرة والشكوى الذاتية المشتملة على صيغة المتكلّم.

٣. الأسلوب: يتميز أسلوب ابن نباتة الشاكى بسمات مثل: التأثّر بالقرآن الكريم والحديث النبوى الشريف والمصطلحات النحوية والعروضية والصوفية وأيضا بالفكاهة واستخدام الرمز والتورية.

٤. المعجم الإيقاعى: فاكترث ابن نباتة بسمات خاصة، فى هذا المضمار، وهى: استخدام البحور الشعرية الأكثر ملائمة مع جو الشكوى، مثل الطويل والبسيط والكامل و... وأيضا استخدام البحور المجزوءة والبحور ذات التفعيلة الواحدة مثل الكامل والرجز. ومن حيث القافية فيعتمد كثيرا على استخدام الحروف التى تساعده على ترسيم جو القلق والاضطراب والحزن ويتجنّب استخدام الحروف الكريهة التى تصدم الآذان وتخدش الروح.

المصادر والمراجع

باشا، عمر موسى. لاتا. *ابن نباتة أمير شعراء المشرق*. لاط. القاهرة: دار المعارف.

بدوى، عبده. ١٩٤٨م. *دراسات فى النص الشعرى فى العصر العباسى*. ط٢. الرياض: دار الرفاعى.

التونجى، محمّد. ١٩٩٢م. *المتنّبى ماليء الدّنيا وشاغل النّاس*. ط٢. بيروت: عالم الكتاب.

دردیری، إبراهيم. ١٩٨٣م. *من أساليب اللّغة العربية*. ط١. جدّة: دار البلاد.

سيد أحمد أنس، وئام محمّد. ١٤٣٠ق. *الشكوى فى شعر ابن نباتة*. ط١. الرياض: جامعة الملک سعود.

طه بدر، عبد المحسن. لاتا. *حول الأديب والواقع*. ط٨. القاهرة: دار المعارف.

عصفور، جابر. ١٩٨٢م. *مفهوم الشعر*. لاط. بيروت: المركز العربى للثّقافة والعلوم.

جندى، على. لاتا. *الشعراء وإنشاد الشعر*. لاط. مصر: دارالمعارف.

المصرى، جمال الدّين ابن نباتة. لاتا. *الديوان*. لاط. بيروت: دار إحياء التّراث الإسلامى.